

الأسرة الجزائرية أثناء الاحتلال الفرنسي

أ. نقاز سيد أحمد

مقدمة:

لقد رأى المستعمر الفرنسي أن الأسرة الجزائرية هي الأساس الذي ينبغي تحطيمه من أجل تحقيق مآربه التوسعية وذلك نظرا للسمات التي كانت تسودها من ترابط وتلاحم وتضامن بين أفرادها فاستعمل مختلف الأساليب السياسية وعلى جميع المستويات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية من تفكيك وتحطيم الأسرة الجزائرية وبالتالي تحقيق أطماعه، وهذا ما زاد من تمسك الأسرة الجزائرية بمعاييرها وقواعدها الاجتماعية، بالإضافة إلى الدور الذي لعبته الثورة التحريرية على الأسرة الجزائرية حيث خلقت نوعا من التماسك والالتحام الاجتماعي.

كما ساهمت الأسرة الجزائرية في الثورة التحريرية مساهمة فعالة، ولذلك سنتناول في هذا الإطار الأسرة الجزائرية أثناء الاحتلال الفرنسي كل من الآثار الاجتماعية والثقافية للأسرة الجزائرية بالإضافة للآثار الناجمة عن الثورة التحريرية على الأسرة الجزائرية.

الآثار الاجتماعية للاحتلال الفرنسي على الأسرة الجزائرية.

لقد كانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية للأسرة الجزائرية في حالة يرثى لها وما يمكن الاستشهاد به في هذا المجال أنّ المجتمع الجزائري فقد مليون ونصف المليون شهيد، رجالا

ونساء، أي بما يعادل 1/8 من السكان الجزائريين، كما سجن أكثر من (400000) جزائري في المحتشدات العسكرية الفرنسية⁽¹⁾، ومن النتائج المباشرة لهذه الخسائر البشرية تفكك البنية التقليدية الجزائرية، حيث أن أغلب الشهداء كان لهم عائلات، وبالتالي حرم حوالي (300000) من الأطفال أو الشباب من مراقبة ودعم آبائهم، زيادة على ذلك فإن غياب الأب كرئيس تقليدي للعائلة الموسعة، سبب مشاكل حادة أثرت على استقرار هذه المؤسسة⁽²⁾ الاجتماعية المجسدة في الأسرة.

وبذلك يمثل الاحتلال الفرنسي على الأسرة الجزائرية والمجتمع الجزائري ككل حلقة من حلقات الصراع بين الخصوصيات الاجتماعية والتاريخية الجزائرية والاستعمار الفرنسي لأنّ هذا الصراع الاستيطاني كان ضد العوامل الخاصة بالشخصية الوطنية "فالأمير عبد القادر" كمثال حي على هذا - لم يقدر معاركه ضد الغزاة طيلة سبع عشر سنة فحسب وإنما قاوم إلى جانب ذلك عناصر التحلل من هذه الشخصية المستمدة من خصوصيات المجتمع الجزائري⁽³⁾ "لأنّ ما عرف على الأمير عبد القادر" يعكس ذلك لنا بوضوح لأنّه جمع بين الدهاء العربي

(1) علي مانع، جنوح الأحداث والتغير الاجتماعي في الجزائر المعاصرة: دراسة في علم الإجرام المقارن. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1996، ص117.

(2) نفس المرجع، ص117.

(3) محمد السويدي، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري ص36.

والشجاعة الحربية والطموح وهو يحيا من الوجهة الدينية حياة ورعة متمسكا بالعادات والشرائع الظاهرية ويتمسك في أسلوب حياته بالعادات المتبعة⁽¹⁾، ولذلك فكان رد فعله ضد الاستيطان الفرنسي للحفاظ على الخصوصيات والعادات الاجتماعية المستمدة من الواقع الجزائري المعاش، أما فيما يخص عادات المجتمع الجزائري قبل اندلاع الثورة وأثناء الاحتلال الفرنسي، فيما يتعلق بنظام الأسرة الجزائرية ففيما يخص الزواج مثلا يذكر المؤلف (فرانتز فانون) (FRANTZ FANON) أنّ الزواج في المجتمع الجزائري قبل قيام الثورة التحريرية كان مرتبا من طرف العائلات ففي معظم الأحيان تقريبا، لا يرى الزوج زوجته إلا ليلة الزفاف، لاعتبار هذا المجتمع الزواج عقدا جماعيا وليس فرديا⁽²⁾، وهذا ما يعكس تماسك المجتمع الجزائري آنذاك ولذلك أدرك الاحتلال دور هذا التماسك في الحفاظ على البيئة الأسرية أساس بناء المجتمع الجزائري، ومن هنا سعت فرنسا الاستيطانية للتأثير على الأسرة ومنه على المجتمع ويمكن تلخيص الآثار التي تركها الاحتلال الفرنسي على الأسرة الجزائرية في النقاط التالية:

(1) يوهان كارل بيرنت، الأمير عبد القادر. (ترجمة أبو العيد دودو)، دار هومة،

الجزائر، ط2، 1997، ص73.

(2) مسعودة كسال، ص70.

النقص الكبير في عدد السكان الجزائريين، وهذه الظاهرة مما لا شك فيه قد ارتبطت بأسباب متعددة من بينها كما ذكرنا سالفًا استشهاد مئات الآلاف من أبناء الأسر الجزائرية خلال حروب الإبادة ومعارك المقاومة، إضافة إلى الأعداد الهائلة التي ذهبت ضحية الأوبئة والمجاعات، ونذكر في ذلك مجاعة (1869) التي كان لها أثرًا على المجتمع الجزائري فراح ضحيتها (300000) جزائري⁽¹⁾.

التوجيه الفرنسي الذي استتفز أعداد من الجزائريين ماديًا ومعنويًا عن طريق إغرائهم بالاندماج في مظاهر المدينة الصناعية وتحسين ظواهر الحياة الجديدة في أنظار هؤلاء الجزائريين الذين أخذوا في العيش وهم على التماس واتصال بالجالية الفرنسية المستوطنة مما أدى إلى انخراط قسم من الجزائريين في الجيش الفرنسي بالإضافة إلى سلخ أعداد من الجزائريين عن مجتمعهم ودفعهم إلى العمل لدى الفرنسيين⁽²⁾.

ظهور فئة دخيلة عن المجتمع الجزائري وهي فئة المستوطنين التي بلغ عددها في أواخر القرن التاسع عشر (800000) مستوطن

(1) جموعي مشري، تاريخ المغرب العربي الحديث. طبع المؤسسة الوطنية للقانون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، 1988، ص96.

(2) مصطفى طلاس، الثورة الجزائرية. طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1974، ص73.

سيطرت على ثروات الأسر الجزائرية وأصبحت تتحكم في إرادتهم⁽¹⁾.

تشكل فئة متأثرة بالثقافة الاستعمارية الفرنسية، وقد عاشت هذه الفئة في النهاية حياة الضياع على الرغم من صغر حجمها، غير أنها أدركت فيما بعد أنها جزائرية في عاداتها وتقاليدها ودينها، والتي تتناقض مع أفكار الشعارات التي تحملها فرنسا المتمثلة في الحرية والمساواة بين الأفراد⁽²⁾.

نفسي البطالة وتفتت الأسرة الجزائرية، وتراخي الروابط العائلية ويمكن تفسير ذلك بلجوء الفلاحين الذين صودرت أراضيهم إما إلى الجبال حيث الأراضي الفقيرة أو إلى المدن حيث البطالة والبطء الاجتماعي، ولدفع هذين الخطرين كانوا يختارون بين العمل في مزارع المستعمرين أو في بيوتهم بأجر زهيد وبين الهجرة الخارجية التي كانت واجهتها فرنسا والبلاد العربية بين عامي (1954-1960) كان هناك (300000) لاجئاً جزائرياً في تونس والمغرب ودمر حوالي (8000) مزرعة، وهذه الممارسة الفرنسية أطلق عليها "بيار بورديو" (Bourdieu) اسم الاستئصال⁽³⁾، وقد لعبت الفئة التي تلقت ثقافتها في المهجر العربي أو الفرنسي واحتكت بأحداثها دوراً

(1) جموعي مشري، تاريخ المغرب العربي الحديث. مرجع سبق ذكره، ص 97.

(2) مصطفى طلاس، الثورة الجزائرية. مرجع سبق ذكره، ص 74.

(3) جموعي مشري، نفس المرجع، ص ص 98، 99.

بارزا في إحياء الوعي القومي وقيادة الحركة الوطنية الجزائرية لتعرفها على التيارات الفكرية والقومية في تلك البلدان⁽¹⁾.

الآثار الثقافية للاحتلال على الأسرة الجزائرية.

إنّ معرفة وضعية المجتمع الجزائري يدفعنا إلى دراسة الأوضاع والآثار الثقافية التي شاهدها الأسرة الجزائرية من جراء المحاولات الفرنسية التي تعرضت إليها، ومن بين المحاولات الاستيطانية التي قامت بها فرنسا الاستعمارية من الناحية الثقافية بغية تحطيم الأسرة الجزائرية نجد ثلاث مستويات وهي:

نشاط حملات التبشير وانتشار الطرقية والشعوذة وسن قوانين مخالفة لخصوصيات المجتمع الجزائري، وسنحاول فيما يلي تلخيص الآثار الثقافية للمجتمع الجزائري في تلك الفترة على ثلاث مستويات، أما فيما يتعلق بنشاط حملات التبشير، فالهدف الأساسي الذي يأتي بعد الهدف السياسي الاستعماري لفرنسا هو الدين الإسلامي، والذي يمكننا اعتباره أساس تمسك الشعب بوحده والتحامه، لما يتميز به من الحث على الإخاء والصبر والتضامن.

ولقد صرح سكريتر "بيجو" (Bugeaud) الحاكم في قسنطينة واعترف بالحق الصليبي على الإسلام وعلى نوايا

(1) علي مانع، جنوح الأحداث والتغير الاجتماعي في الجزائر المعاصرة. مرجع سبق ذكره، ص ص 117، 118.

حكومته في استئصاله من مقومات الأمة فقال: "فإنَّ أيام الإسلام الأخيرة قد جاءت ولن يكن في الجزائر كلها، بعد عشرين عاما من إله غير المسيح"⁽¹⁾.

وتتمثل وسائل التبشير في نوعين مختلفين: فالوسائل الأولى على الوسائل السلمية، كتحييب السيد المسيح وتقريبه إلى القلوب.. وهذا بالتعليم وإقامة المراكز الخيرية كالملاجئ وأما الوسائل غير السلمية فهي استعمال الإدارة الاستعمارية قوانين تمنع فتح الزوايا بحجة أنها المحرضة على الثورة والفوضى والاستقرار، ونفي رجال الدين وإخضاع القضاء الإسلامي للقضاء الفرنسي وإلغاء خطب الجمعة، حيث سلكت هذه الحكومة الاستعمارية - منذ كانت - إلى محو الإسلام من الجزائر مسالك شتى، فلما أيقنت أن ذلك لا يتم لها من طريق الشعوذة والترغيب عمدت إلى تشويهه بهذه الأساليب التي مازالت محتفظة بها إلى الآن، وغايتها من هذه الأساليب ثلاثة أمور تكوين إسلام جزائري مقطوع الصلة بماضي الإسلام الحقيقي⁽²⁾ وتكوين مسلمين مقطوعي الأسباب من جميع المسلمين، وتكوين طائفة تقوم لها بذلك ممن تسميهم رجال الدين، تنشئهم على الشروط (الوظيفية) وتروضهم على

(1) بسام العسلي، عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية. دار النفائس، بيروت، ط2، 1982، ص41.

(2) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون سنة، ص116.

الأساليب الحكومية، حتى ينسوا أنفسهم، وعلاقتهم بالدين، وصلتهم بالامة وتمتحنهم في مهن أخرى غير الدين، حتى يعتقدوا أنهم يؤدون عملا للحكومة ورجالها لا لله ودينه، وأنهم يصلون الركعة لمائة الفرنك لا للواجب الديني وأنهم يخضعون للحزب (للبايلك) لا للتعبد والتلاوة⁽¹⁾، خابت الحكومة بهذا الجند العاطل المرتزق الذي جندته واصطادته بشبكة المطامع من الأئمة حيث نقحتهم ليصبحوا جزءا أصيلا من الأدوات الحكومية⁽²⁾، التي يستغلها الاستعمار الفرنسي لضرب الدين الإسلامي، وينتقد "محمد البشير الإبراهيمي" قضية فصل الدين عن الحكومة لأنّ الدين الإسلامي يعكس سلوكيات أفراد المجتمع ونظرا لأهمية الدين الإسلامي في الممارسة الاجتماعية والحكومية خصص لها "محمد البشير الإبراهيمي" في "عيون البصائر" فصولا كاملة ليبين لنا المحاولات الاستعمارية لفصل الدين الإسلامي عن الممارسات الاجتماعية والحكومة، وبذلك سعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للدفاع عن قضية فصل الدين، وهذا لا يعني استعمال الدين لتبريرات سياسية حيث يقول "محمد البشير الإبراهيمي" وطالما صارحنا هذه الحكومة بأنها هي التي خرجت من وضعها فأدخلت الدين في السياسة.

(1) نفس المرجع، ص117.

(2) نفس المرجع، ص117.

فاضطرتنا إلى أن تقابلها بالمثل فندخل السياسة في الدين، والبادئ أظلم، على أن تدخلنا في السياسة أدنى إلى الشرف، وأبعد عن الاستهجان من تدخلها في الدين"⁽¹⁾.

ويعتبر الكاردينال "لافيجيري" (Lavigerie) أحد أقطاب المسيحية التي عرفت بعملية التبشير وهو الذي يقول "إني الوحيد الذي أبدت اهتماما بنشر المسيحية في وسط العرب"⁽²⁾، فهو الذي ظل يبحث عن أسباب قوة الجزائريين لإزالتها، فيزيل بذلك العراقيل التي تحول دون نجاح العملية التبشيرية وهذا ما دفعه إلى القول "علينا أن نخلص هذا الشعب من قرآنه"⁽³⁾.

وكدليل على سياسة "لافيجيري" - (Lavigerie) لمحو الروح الإسلامية للعائلة الجزائرية هو استغلاله للوضعية التي آلت إليها هذه الأخيرة في السنوات الممتدة بين (1866-1868) فقد حلت بها كوارث طبيعية كانت أقصى ما يكون على الأسر الجزائرية، وخاصة الفلاحين وتتمثل في الزلزال الذي تسبب في ضحايا كثيرين، وهجوم الجراد والجفاف، ووباء الكوليرا، وأمراض وأوبئة أخرى.

(1) محمد البشير الإبراهيمي، نفس المرجع، ص180.

(2) خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر 1830-1871. مطبعة دحلب، الجزائر، 1992، ص114.

(3) بسام العسلي، نفس المرجع، ص45.

فتضاعفت هذه الأسباب لتؤدي إلى أزمة اقتصادية، أخذت صورة مجاعة عامة بالجزائر عام "1867" واستمرت إلى أواخر عام "1868" فأصبحت العائلات تقعات من الجذور والأعشاب، وبلغ بهم الأمر إلى أن أصبحوا يتنازعون على أماكن رمي الفضلات في المدن.

كما اعتبر البعض أن سبب الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي عرفها الشعب الجزائري ترجع إلى سوء تصرف السلطة الفرنسية مع الجزائريين الذين أخذت أراضيهم غصبا، كما لوحظ في تلك الفترة أن نفس المناطق التي تضررت فيها العائلات هي نفسها تأثرت من جراء ثورة (1864-1865) وما حملته من تدهور اجتماعي وانتشار الأمراض والفقر والجوع.

أما الكاردينال "لافيجري" (Lavignerie) رد سبب الحالة الاجتماعية المزرية إلى الإقطاع الأهلي، إلا أن متتبعي جذور الأزمة يعتبرون ذلك غير صحيح ذلك أن الملاك الكبار من الجزائريين قاموا بواجب وطني إنساني، والمتمثل في إفراغهم لمظهرهم، كما نشروا ثرواتهم ومن بين هؤلاء "الباشاغا المقراني" حيث كان يملك سهما في بنك الجزائر بمبلغ (350) ألف فرنك فرنسي في شكل وصولات، حيث استثمره لصالح الفلاحين من أجل إعادة النشاط الزراعي وبالتالي التحسين الاجتماعي والاقتصادي، كما استلف من سيد يهودي (200 ألف فرنك) خصصها طبعا لإنقاذ الجياع عن

الموت وإعانة الفلاحين كما سبق وقلنا لحرث أراضيهم⁽¹⁾ وأمام هذا الوضع المتردي وعجز الحكومة عن الحد من شبح المجاعة، استغل "لافيجيري" من تلك الظروف الصعبة للعائلات الجزائرية، فاتهم النظام العسكري وحملة مسؤولية الأزمة التي تعيشها الأسر الجزائرية فكانت فرصة لفتح باب التبشير، فأستغل الوضع لمساعدة الكثير من المرضى، فأنقذهم من الهلاك باسم الصليب وفرنسا، فجمع من حوله ما يقارب (1800) طفلا من مريض ومتشرد ووزعهم على مختلف المراكز والملاجئ، التي أنشأها في نقاط عديدة من البلاد (بوزريعة - الأبيار - بن عكنون - بوفاريك...) قصد تنصيرهم وكان ذلك يتطلب أموالا فسافر إلى باريس يطلب لهؤلاء الصدقات، ثم وجه نداء لكل الصحف الكاثوليكية، يصف بها المجاعة ويطلب مساعدة المسيحيين لصالح الملاجئ ولقد لبى الكثيرون هذا النداء، وتكونت لجان بالمدن الفرنسية الكبرى لجمع التبرعات⁽²⁾، واستمر العمل الحيوي "للافيجيري" وشكر عليه من طرف الجنرال "ومبفن" ورأى أن هذا العمل يجب أن يلقي تأييدا واسعا من الأسر الجزائرية وحتى الدولة، وجند "لافيجيري" فرقا دينية متكونة من رهبان وراهبات لمعالجة الأطفال المصابين بوباء الكوليرا وغيرها من الأمراض المهلكة،

(1) خديجة بقطاش، نفس المرجع، ص116.

(2) خديجة بقطاش، نفس المرجع، ص117.

القاتلة للحياة، كما أدى ذلك إلى هلاك الكثير من المشاركين في هذه الأعمال الخيرية⁽¹⁾.

كما طالبت بعض الأسر الجزائرية باسترجاع أطفالها الذين مازالوا على قيد الحياة لكن "لافيجيري" رفض وعارض ذلك بدعوى أنه من أنقذ حياتهم من الهلاك، ليجعل منهم رجالا مسيحيين إن أمكن ذلك، لكن تأكد صعوبة التصير فركز جهوده على الأيتام الصغار بدعوى أنه يمكنه زرع مبادئ المسيحية عن طريق التعليم وفتح مراكز الصناعة اليدوية فسلم البنات المراهقات للراهبات لتكوينهم في أعمال الحقل والمنزل، وكما تأكد كذلك أن الأسر بقيت متمسكة أكثر بمبادئ الديانة الإسلامية، كما تلقى نقدا ومعارضة من طرف معارضي التبشير، إلا أن "لافيجيري" تمسك بأفكاره التبشيرية وقال: "يجب أن نعتني على الأقل بتعليم الأطفال مبادئ غير التي ولد عليها أجدادهم، إن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل"⁽²⁾.

وبالنظر لدور التعليم فعمل الاستعمار الفرنسي لاستغلاله للسيطرة على الأسرة الجزائرية ومنه المجتمع ككل، وكان التعليم وما يزال الأساس الحقيقي لكل ثقافة، ولأي تقدم في المجتمع الإنساني، وقد تحدثت المصادر كما لاحظنا عن انتشار

(1) نفس المرجع، ص 117.

(2) نفس المرجع، ص، ص 113، 114.

التعليم في العهد العثماني -الذي سبق الاحتلال الفرنسي - بالجزائر انتشارا طيبا حتى غطى المدينة والقرية والجبل والصحراء وكان المورد الرئيسي للتعليم وهو الأوقاف وعن مؤسساته من كتاتيب ومساجد ومدارس وزوايا ومن بين أهم وسائله المكتبات⁽¹⁾، وبذلك فالتعليم كان قبل كل شيء لرفع الأمية واستجابة لدعوة الدين في طلب العلم ومعرفة الفروض وليس لأغراض أدبية واجتماعية⁽²⁾، وقد ذكر السيد "شيلر" الذي عاش في الجزائر أكثر من خمس عشر سنة أنّ في الجزائر مدارس خاصة لتعليم البنات لم يشهدها هو ولكن حدثوه عنها وأنّ النساء كن يزرن هذه المدارس⁽³⁾، أما المرأة الريفية فقد كانت أكثر ظهورا من المرأة الحضرية وكانت تقوم بدورها الاجتماعي والاقتصادي بدون أن تخرج عن حدود البيئـة والتقاليد والدين، ولا شك أيضا أنّها كانت تتلقى في صباها قواعد الدين ومبادئ القراءة على يد والديها إذا كان من المتعلمين أو على يد مؤدب خاص⁽⁴⁾، ومن أهم وسائل التعليم كانت تتمثل في الكتب والمكتبات والأساتذة، وكان التعليم باعثا على التأليف⁽⁵⁾ ولكن في الفترة

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص315.

(2) نفس المرجع، ص 342.

(3) نفس المرجع، ص342.

(4) نفس المرجع، ص342.

(5) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر. مرجع سبق ذكره، ص250.

الاستعمارية الفرنسية ظهرت مشادات بين دعاة التعليم وخاصة العربي وبين الحكومة، حيث يرجع تاريخ هذه المشادة القائمة بيننا وبين الحكومة في قضية التعليم العربي إلى سنة (1934) فهي مقارنة لظهور جمعية العلماء المسلمين تقريبا والتي أنشأت في 05 ماي 1931 ولكنها تشدد وتتعدد في كل سنة واحدة، وواجهتها فرنسا بمنع "محمد البشير الإبراهيمي" من إلقاء دروس التفسير بالجامع الأعظم من تلمسان ببرقية من الوالي العام على عامل وهران، وكان ذلك في أواخر سنة (1932) ثم منعت الأستاذ "العقبي" من إلقاء دروسه بمسجد العاصمة بقرار (ميشال) المعروف⁽¹⁾، وابتدأت المشادة من ذلك الحين وكانت في مبدأ أمرها مشادة في حرية المساجد، لأن الحركة التعليمية نشأت بعد ذلك، "بعد أن تغلغلت دعوة جمعية العلماء في النفوس فحركتها"⁽²⁾، ولما اشتد الخصام بين المستعمر من جهة وجمعية العلماء من جهة أخرى حول قضية التعليم وبعض المسائل الدينية الأخرى فلم يجد المستعمر سوى الاتصال بجمعية العلماء وفعلا فقد اتصل بها الأستاذ (ميمو) هذا الأول عهدة بالإدارة، وطلب الاجتماع بنا لفض المسألة الدينية وقضية التعليم فاستجبنا، وكان الاجتماع الأول حافلا بالوعود والمجاملات"⁽³⁾،

(1) نفس المرجع، ص259.

(2) نفس المرجع، ص251.

(3) نفس المرجع، ص252.

وبقيت مجرد وعود لا أكثر ولا أقل وعمل الاستعمار بكل ما يملكه لطمس "الشخصية العربية، الإسلامية" الجزائرية إلا أن جمعية العلماء وكل الأسر الجزائرية تصدت لهذه الحملة وبقيت الحملات الاستيطانية، حيث يقول: "محمد البشير الإبراهيمي" رأينا أن التعليم مبني على أصول استعمارية غايتها هدم الإسلام والعربية ولكن المفاوضات فيها لا تنجح لفقدان شرط النجاح، وهو حسن نية ومهارة القصد في أحد الجانبين...."⁽¹⁾، ولذلك فمحاولات الاستعمار لتتصير المجتمع الجزائري وطمس لغته العربية وتعليمه وكل معايير وقواعد الاجتماعية انهارت في الأخير أمام تمسك الأسرة الجزائرية بمقومتها بفضل القوافل التنويرية لجمعية العلماء وكل الوطنين بدءا من النخبة وصولا إلى كل أفراد المجتمع الجزائري، بالإضافة إلى انتشار الطرقية والشعوذة، فلقد لعبت المؤسسات الثقافية دورا بارزا في حفظ الأسرة والإسلام ومبادئه وتتمثل هذه المؤسسات في المسجد والمدرسة والزاوية والمكتبة، ومعظم هذه المؤسسات كانت للتعليم أكثر مما كانت للثقافة بمفهومها اليوم، ولم يكن من بين هذه المؤسسات جامعة أو معهد عال رغم أن بعض المساجد والمدارس والزوايا كانت تبث تعليما في المستوى التعليمي العالي، ولم تعرف الجزائر عندئذ المسرح" ولكن وجد ما يشبهه كخيام القراقوز وحلقات المداحين وحلقات

(1) نفس المرجع، ص252.

المصارعة"⁽¹⁾، ومن بين هذه المؤسسات الثقافية نجد أكبر مؤسسة كانت تغذي هذه المؤسسات جميعا هي الأوقاف، حيث يعتبر الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، فهو أساسا يعبر عن إحساس الإنسان المسلم بالتضامن مع المجتمع الإسلامي، ويقوم الوقف على مبدأ شرعي وعلى صيغة قضائية ملزمة، فالقاضي عادة هو الذي يقوم بكتابة صيغة معينة وبحضور الواقف والشهود، مع تحديد قيمة الوقف وتعيين أغراضه وكيفية الاستفادة منه، وانتقاله وعوامل نموه وتخصيص المشرفين عليه وشروطهم، مع ذكر تاريخ الوقف وتوقيع الحاضرين والقاضي، فالوقف إذن وثيقة شرعية يستند عليها ويلتزم باحترامها الواقف وأهله والمستفيدون منه وكذلك السلطة"⁽²⁾، كما لعبت الزوايا أيضا دورا هاما وأساسيا في حفظ الإسلام والأسرة والمحافظة على مقومات الشخصية الجزائرية وهذا عن طريق نشر علوم الدين في المعاهد الإسلامية وأهم الزوايا في الجزائر خلال فترة الاحتلال والتي تطرق إليها "الأستاذ أحمد توفيق المدني": "الزوايا الرحمانية والزوايا القادرية وغيرها من الزوايا..."⁽³⁾.

(1) نفس المرجع، ص223.

(2) نفس المرجع، ص244.

(3) احمد توفيق المدني، كتاب الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984،

فإذا اشتهر أحد المتصوفة بين الناس أسس له مراكز يستقبل فيه الزوار والغرباء والأتباع ويعلم فيه الطلبة ويتبرع الناس لهذا المركز فيكبر ويثرى ويتضاعف قصاده ومريدوه، ويصبح اسم المتصوف (المرابط) علما على المكان ويصبح المكان يدعى بين الناس زاوية سيدي فلان أو رباط سيدي فلان، فإذا مات "سيدي فلان" يدفن في الزاوية أو الرباط، ويصير الضريح علامة على الزاوية، وهذه علامة على الضريح ويرث الأبناء والأحفاد مكانة وعمل "سيدي فلان" وتزداد قداسة الزاوية أو الرباط بين أهل الناحية وتنتشر سمعتها ونفوذها إلى نواحي أخرى بعيدة، وهكذا⁽¹⁾، فمثلا مدينة الجزائر عاصمة الدولة، كانت تعج بالزوايا والأضرحة والقباب المقامة على الأولياء الصالحين ومن بينها ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي وزاوية ولي دادة وزاوية عبد القادر جيلالي⁽²⁾، ونجد أن "مليانة" التي تعد من أقدم المدن في الجزائر أنها تضم ستين زاوية ومن أشهرها زاوية "سيدي أحمد بن يوسف" حيث يعتبر هذا الأخير من مواليد (1435م - والمتوفى 1524م) ودار الأمير عبد القادر مزارين هامين لمدينة مليانة، فهما يعدان بمثابة النواة الرئيسية لمليانة إذ لا زالت زاوية الشيخ الصالح تستقبل جموع الزوار القادمين إليها من كل الجهات، وفي هذا السياق

(1) أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص262.

(2) نفس المرجع، ص263.

يقول "شاوو" في كتابه عن الجزائر، وفي فصل الربيع يقدم إليها (الزاوية) أناس كثيرون من الجزائر والبليدة ونواحي أخرى، للزيارة والتبرك بوليها الصالح "سيدي أحمد بن يوسف"، وما زال أهل مليانة وما جاورها متمسكين ببعض القيم والعادات الاجتماعية والشرعية والدينية بالزاوية إلى يومنا هذا ومنها: العادات الاجتماعية المتمثلة في ذكر أسماء الجنائز والصلاة عليها والعادات الشرعية المتمثلة في أداء القسم والعادات الدينية تتمثل في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف والأركاب الموسمية مثل ركب "بني فرح" الوافد من الدواوير التالية "كدوار عنب" و"بني غمريان" و"بوهلال" وأيضا ركب "بني مناصر" ويشمل نواحي "بن علال" و"عريب" و"عين الدفلى"⁽¹⁾، كما نجد ضريح سيدي المجاهد بمليانة وأيضا زاوية سيدي عبد القادر المدفون ببغداد وقد كانت هذه الأخيرة وفيه للمسار التحريري، حيث أُنْهتْ ضد الثورات التي تعرضت لها مختلف أنحاء العالم، بالإضافة للمساجد التي لعبت دور تعليمي من الناحية التربوية والثقافية والتعليمية والإصلاح الديني⁽²⁾، وتكوين عقول الرأي العام من خلال إشاعة المعرفة بين الناس، ولكن بزوال مؤسسي هاته الزوايا، زالت معها الأهداف التي كانت تحملها

(1) محمد بن إسماعيلي، مشايخ خالدون (ولاية عين الدفلى نموذجا). مطبعة الكاهنة، الجزائر، ط1، 1998، ص51، 52.

(2) رابع تركي عامرة، في التربية الإسلامية: رسالة المسجد في المجتمع الإسلامي. حوليات جامعة الجزائر، ص86.

فبعد ما كانت مراكز للإصلاح والتوعية، أصبحت مراكز للتدجيل والشعوذة، وهو الهدف الرئيسي للإدارة الفرنسية، إذ تمكنت إلى حد بعيد وكبير من زرع الجهل وسط المجتمع الجزائري تحت شعارات مختلفة كقولهم: "من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان" "سلم تسلم" "أمسلمين أمكتفين" - وهذه الشعارات والمصطلحات جعلت البعض يسلم ويصدق أنّ الاستعمار قضاء مفروض ولا مفر منه بالتالي يرضى بدون نقاش إلى التعايش السلمي.

وأحسن مثال على ذلك ما صنعه بمسجد "كتشاوة" بمدينة الجزائر فحولته إلى كنيسة "القديس فيليب" (Saint Philippe) غير أنّ الجزائريين لم يرضوا بهذا التصرف وأمام رفض الجزائريين لهذا العمل الديني قررت الإدارة الفرنسية القضاء على كل من يعارض إرادتها، وفي الوقت نفسه تجمع حوالي (2000) متظاهر من أسر جزائرية (رجالاً ونساء وأطفال...) رافضين هذا التصرف⁽¹⁾ فأعطي أمر للجيش آنذاك باحتلال المسجد بالقوة وأثناء محاصرة المسجد كان هناك حوالي (4000) مصلي فقد اعتصموا به واضعين الحواجز أمام أبواب المسجد، ولكن الجيش الفرنسي استعمل القوة فكسر أبوابه وأطلق النار على المصلين ونتيجة هذا التصرف الوحشي، سقط قتلى وجرحى، وتم بذلك الحصول على المسجد

(1) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر. مرجع سبق ذكره، ص370.

وتكون بالتالي قد تحققت إرادة السلطة الاستعمارية وحققت انتصارا في انتشار الدعاية المسيحية بالجزائر⁽¹⁾.

وهنا يبين محاولات الاستعمار الفرنسي في نشر الدين المسيحي عن طريق بعض المساعدات باسم المسيح لإغرائهم باعتناق الدين المسيحي، وفتح مدارس لتعليم اللغة العربية ليكونوا موظفين في إدارتهم، وكان تعليم اللغة الفرنسية موجها لمغالطة ومخادعة العائلات الجزائرية فيكتب مثلا على السبورة "يا أولادي أحبوا فرنسا وطنكم الجديد".

لم تقف السلطة الفرنسية عند هذا الحد لطمس الشخصية الإسلامية العربية فحسب بل تجاوز ذلك فتدخلت في القضايا والمشاجرات بين أفراد المجتمع فأصدرت قرار في 1834.04.10 وكان يقضي استئناف الأحكام التي يصدرها القاضي المسلم أمام مجلس الاستئناف الفرنسي، وأصدرت قرار آخر في 1834.04.28 والذي يحاول التضييق بالقضاء الإسلامي إذ ينزع سلطة الأحكام في الجنايات من القاضي المسلم، انتهى الأمر بعد ذلك إلى وضع القضاء الإسلامي تحت سيطرة وزير الحرب بمقتضى القرار الصادر في 1848.08.02 والذي جرد القضاة المسلمين من كل صلاحياتهم بفرضه التقاضي لدى قضاة الصلح الفرنسي، وجاء

(1) نفس المرجع، ص378.

مرسوم آخر في 26 يونيو 1873 نزع من القضاء حتى النظر في الملكية ودعاوي الزواج والطلاق والميراث⁽¹⁾.

آثار الثورة التحريرية على الأسرة الجزائرية.

لعبت الأسرة الجزائرية دورا أساسيا في صنع تاريخ منطقة العالم العربي الإسلامي، ومن الواضح أنّ الإسلام هو الذي شكل الأسرة في الجزائر فطبعها بطابع حضاري، فأصبح الإسلام هو الموجه لتصرفات الأسرة، وفي تحقيق انسجام الأسرة والمجتمع وما يفسر ذلك هو أن الأسرة ظلت حتى في عهد الركود الفكري والاقتصادي متماسكة بفضل تلك القيم والقواعد والتقاليد، وهو تماسك لعبت فيه المرأة دورا معتبرا إلى جانب الرجل ولذلك فالمجتمع يتكون من المرأة والرجل وتقدم المجتمعات لن يتم إلا بفضلها معا، ونقول بدورنا أنّ أي مجتمع لا يصلح إلا بصلح أو بصلاح الرجل وسلامته في سلامة المرأة الأمر الذي يجعلنا نلح بالدرجة الأولى على وجود تعليم النشء، وإعداده بخاصة الفتاة الشق الآخر الذي يكمل الفتى⁽²⁾، وبذلك فالمرأة ليست إذن شيطانا يلعن أو دمية تقدس أو موضوع جنس في يد الرجل⁽³⁾، أو آلة للنسل

(1) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها الإصلاحية. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 53، 54.

(2) عبد الرحمن الوافي، في سيكولوجية الفرد والمجتمع، ص 7.

(3) مصطفى بوتفوشنت، العائلة الجزائرية، ص 28.

أو إنتاج الأولاد⁽¹⁾، وهذا الذي حدث خلال الثورة التحريرية الجزائرية فقد لعبت المرأة فيه رفقة الرجل دورا أساسيا في العمل الثوري ضد المستعمر الفرنسي من جهة وتماسك الأسرة الجزائرية من جهة أخرى، فانسجام الأسرة الجزائرية وما يترتب عليه من انسجام اجتماعي يفسر الصمود التلقائي في وجه موجات الاحتلال والذي يفسر استمرار المقاومة على امتداد العهود الاستعمارية رغم طابع الإبادة لحروب الاحتلال التي حاولت أن تبيد الأسر الجزائرية، وبذلك فالاستعمار سعى إلى تحطيم الشخصية العربية وتفكيك الأسر الجزائرية عبر محاولات عديدة لقطع كل صلة بين الأسرة والثورة⁽²⁾، فبعد إغلاق المدارس العربية واغتصاب الأوقاف ومحاصرة مصادر الثقافة في المساجد والزوايا، فقد سعى لتفكيك الأسر عن طريق محاولات التمسيح التي كانت تقوم بها جمعية الآباء البيض وجمعيات الأخوات البيض وعن طريق ترغيب بعض المتعلمين الاجتماعيين في التجنيس بالجنسية الفرنسية أو التزويج بأوروبيات يصبح أبناءهن بذلك طبعا من خلال هذا القانون الفرنسي ذو جنسية فرنسية ولكن الأسرة الجزائرية ظلت رغم كل المحاولات التوسعية الفرنسية منظمة ومتكاملة وأصلية⁽³⁾،

(1) أحمد رضا حوحو، مع الحمار الحكيم. المطبعة الجزائرية، قسنطينة، 1953، ص 34.

(2) من مقررات اللجنة المركزية من المؤتمر الرابع إلى الخامس. الجزء 2، نشر وتوزيع

قطاع الإعلام والتشيط، الجزائر، 1985، ص 579.

(3) نفس المرجع، ص 580.

ولقد برهنت الأسرة الجزائرية الريفية عن إيمانها بحتمية النصر عندما رفضت التخلي عن أرضها، وتحملت مخاطر البقاء في المناطق المحرمة، ففي كثير من المناطق مثل جبال بني شقران، جبل اللوح، الونشريس...الخ، وكانت الأسر الريفية أحسن عون للشوار والثورة والمجاهدين فقد برهنوا على مهارة فائقة في التكيف مع بيئتهم وعبقرية فذة في تحويل الموارد إلى وسائل مقاومة، فلقد حولوا المغارات والصخور والأشجار إلى مخابئ للمجاهدين، والسلاح والمؤونة ومراكز للعلاج وورشات لتصليح السلاح.

وهذا ما أكده لنا العديد من مجاهدي منطقة عين الدفلى وبالضبط بمليانة بأنّ الأسر ساعدتهم من خلال المأوى والمأكل والملبس وحتى من ناحية الاتصال حيث استعان المجاهدون بالأسر لتوزيع المناشير والنداءات والسلاح.

وفي المدن تكيفت الأسر مع حالة الحصار الخانق المتمثل في العدد الضخم من فرق المظليين والشرطة ومصالح المخابرات والخونة الذين عملوا كل ما بوسعهم لشل حركة تضامن الأسر مع الثورة.

غير أنّ الأسر الجزائرية تحملت الأساليب القهرية شجاعة وتحدي فتعرضوا كذلك للمداهمات الليلية للجيش الفرنسي، والانتقالات الجماعية والسجن...الخ غير أنّه تواصلت جمع التبرعات

المالية ونقل الأدوية والألبسة والأغذية إلى الأرياف وتوزيع المناشير بأساليب سرية سواء من طرف الرجال أو النساء أو الأطفال⁽¹⁾.

والأسر الجزائرية كانت هي الممول الرئيسي للثورة خلال سنوات الكفاح بنسبة (80%)، أما (20%) الباقية فهي موزعة بين المساعدات المالية من الدول العربية الشقيقة والكتلة الأوروبية على أن أهم من هذا كله هو أن الجزائر عندما استقلت عام (1962) عن الاستعمار الفرنسي فإنها لم تكن مدينة لأي دولة من دول العالم⁽²⁾، ويمكن أن نلخص أهم مظاهر مشاركة الأسرة الجزائرية في الثورة التحريرية في مجالات مختلفة، فلقد برز دور الأسرة الجزائرية في الثورة التحريرية كذلك فيما يخص العلاج وكان هذا الدور لا يقل أهمية عن الأدوار التي قامت بها كتقديم الأكل واللباس للمجاهدين خصوصا وأنه كانت مشكلة نقص الممرضين هو ما يعانيه الثوار وهذا ما استخلصناه من خلال رأي أحد المجاهدين في مجلة "أول نوفمبر" حين قال بأنه عندما انخرط في الثورة التحريرية في نهاية (1955) فكان عدد الممرضين قليل بحيث كان عددهم في الناحية الرابعة لا يتجاوز اثنين كما أنّ

(1) مقررات اللجنة المركزية، مرجع سبق ذكره، ص582.

(2) محمد زروال، الحياة الروحية في الثورة الجزائرية. منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ط1، 1994، ص66.

المراكز الصحية لم تكن موجودة فكل ما كان موجود هو حقيبة الممرض لا غير.

ولقد تأكدت الحاجة إلى الممرضين في الثورة بعد أن قطعت هذه الأخيرة شهورا عديدة من التصدي للعدو ومقاومته وجل الأدوية كما يوضح المجاهد التي كانت موجودة في الحقيبة كانت مقدمة منها الأدوية التي يطلبها المجاهدون⁽¹⁾، كما يؤكد بأن علاج الجرحى كانوا يقومون به في منازل الأسر ويكفي هذا ليعبر أن الأسرة الجزائرية كانت تستقبل المجاهدين والجرحى بدون خوف، وهذا ما تمكن معرفته من بعض الأسر "بمنطقة عين الدفلى" بأن معظم الأسر كانت تستقبل المجاهدين والجرحى منهم وتقديم لهم يد المساعدة والعون كما أن الأسر كانت تجمع الأدوية من تلقاء نفسها أو بمطلب من المحافظين السياسيين^(*).

وتوضع تلك الأدوية في مركز القيادة ثم توزع على الممرضين حسب الاحتياجات وكان الجرحى يعالجون من طرف الأسر بواسطة الطرق التقليدية كاستعمال الأعشاب والزيت وكانوا أحيانا يرسلونهم إلى مراكز صحية، وعندما اكتشف العدو تلك العلاقة التي كانت تربط بين الأسر والمراكز الصحية أصبح يلجأ على قصف القرى والمداشر ونقل المراكز الصحية إلى الجبال

(1) علي العياشي، ندوة في مجلة أول نوفمبر العدد 81، جانفي 1987، الجزائر، ص 19.

(*) الذين يختصون بجمع المساعدات من الأسر "الأكل والدواء واللباس" ويقدموه للثوار.

والغابات ومن هنا يتضح لنا نوع التضامن الاجتماعي الواضح في البناء الاجتماعي الكلي وبين الأسر وأفرادها مما زاد في تماسك أفراد المجتمع وبالتالي قلص من السلوكات الإجرامية الهدامة وبذلك فلنوعية العلاقات الأسرية آنذاك المتميزة بالتضامن الاجتماعي لتحديد نوعية السلوكات الفردية. كما أكد أحد المجاهدين أنه كانت هناك أزمات اجتماعية في منازل الأسر في القرى والمدشر ولم يكتشفها العدو إلى غاية الاستقلال وأكد كذلك بأنه هو وإخوانه المجاهدين عندما يعلمون بقدوم العدو يحملون الجرحى ويغادرون القرية أما الجرحى الذين لا يستطيعون المشي فإنهم يوكلهم إلى النساء فيعمدون إلى إنزالهم على الكازمة ويقمن برعايتهم⁽¹⁾.

إن قاعدة العنصر المعنوي أو الروحي هو الإيمان الراسخ في قلوب الأسر الجزائرية الإيمان بالله عز وجل، الإيمان بالوطن والقومية والشعب، لقد كان تأثير الإيمان على الأسرة الجزائرية قبل الحرب عامل احتفاظها بمقومتها وأثناء قيامها عاملا أساسيا في توحيد الصف وتوجيهها رابطة دينية متينة قوامها اللغة والدين والتاريخ المشترك والأمان والأمانى والحدود والأهداف المشتركة والمنشودة، وتسمية الجنود بالمجاهدين هي من صنع أفراد الأسرة الجزائرية، فهم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم من تلقاء أنفسهم.

(1) علي العياشي، نفس المرجع، ص21.

ويتضح لنا عملي التأثير والتأثر ومدى مساهمة كل من الرجل والمرأة في الثورة وهنا نلمس القول القائل: إذا علمت ولدا علمت رجلا وإذا علمت امرأة علمت أمة"⁽¹⁾، ونجد في نفس السياق الشاعر حافظ إبراهيم يقول: الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق. ومن هنا لعبت المرأة "الأم" بشكل خاص دورا في تنشئة أبنائها من خلال زرع مبادئ وقيم الثورة التحريرية.

والدور الذي لعبه الآباء في المدارس الشعبية في تلقين أبنائهم دروس في التاريخ تختلف عن الدروس التي كانوا يتلقونها في المدارس الاستعمارية وعليه ساهم الشعب في الثورة ولولاه ما استطاعت الجزائر استرجاع الاستقلال وكان يمثل دعما حقيقيا لها، وهذا ما يؤكد الأستاذ "ابن طوبال" عندما توجهنا للشعب لن نجد صعوبة كبيرة هذا في أول نوفمبر، فالشعب لم يسبب لنا مشاكل، وقبلنا ونحن كنا نخفي أنفسنا ولم نكن نذهب عند كل الناس ولكن وجدنا كل الناس فرحين وكلهم مستعدون عندما نطلب منهم التضحية كانوا راضين بها"⁽²⁾، وعن إيمانهم قال: "كانوا يتساءلون ويقولون إذا لم يكن عندكم سلاح فإننا

(1) عبد الرحمن الوايف، في سيكولوجية الفرد والمجتمع. مرجع سبق ذكره، ص7.

(2) الصادق رباحي، التاريخ لطلاب البكالوريا. نشر مشترك لدار تلاتنقيت ودار لمن، الجزائر، جانفي 1995، ص227.

على استعداد لبيع جميع أرزاقنا بشرط واحد ، وهو ألا تقتضوا من عند الدول حتى لا تكون الجزائر مرهونة عند الاستقلال"⁽¹⁾.

كانت المرأة إذن ركيزة أساسية وسندا أخلاقيا مهما للأزواج والأولاد كما تحملت مشاق الحرب في عاطفتها لأبنائها وزوجها وأبيها كما استدرجنا لتحمل مسؤوليات أخرى إضافة إلى مسؤوليتها كربة بيت إنه لا شيء يوحى لنا بمدى تماسك الأسرة آنذاك من خلال الدور الذي لعبته المرأة -الأم - الزوجة وحتى البنت، وهذا الشيء يضرب المثل به في الشجاعة الثورية للفتيات والنساء المجاهدات اللواتي شاركن بنشاط كبير بالسلاح أحيانا من أجل تحرير البلاد ، كما لا ننسى إحساسهن النبيل نحو وطنهن و"خير دليل على ذلك تلك الفتاة التي رفضت الفتى الذي تقدم لها لخطبتها لأنه ليس من المجاهدين" ويمكن أن نلخص مشاركة المرأة من خلال:

مؤازرة المحاربين والمقاومين بالإضافة إلى مشاركة المرأة في إضراب ثمانية أيام الذي أثبتت مدى الترابط الذي يجمع بين أبناء الأسرة الجزائرية ووجود المرأة أثناء الثورة من خلال تقسيم العمل ، فالمجندات المتعلمات كانت تشغل مناصب هامة سواء في الصحة والتمريض والإرشاد والإعلام والتربية.

(1) نفس المرجع ، ص228.

والمجنّدات غير المتعلّقات تقمن بتغذية الجيش وإعلامه، وهؤلاء يسمّين بالمسبّلات، والمناضلات في جبهة التحرير الوطني عملهن جمع الاشتراكات والتبرعات والتوجيه والإعلام وتقصي أخبار العدو وقد تطوّر عملهن عندما رحل العدو السكان في البداوي وحشّروهم في المحتشدات الإجبارية، وقد استشهدت الكثيرات منهن ويعتبرن الجندي المجهول للثورة⁽¹⁾.

وفي ميدان آخر ففي ليلة الثورة تحولت اللجنة الثورية للوحدة والعمل إلى منظمة تدعى "جبهة التحرير الوطني" وجيش التحرير الوطني" والتي أصدرت بيانا يوضح طبيعة الأحداث التي شهدتها الجزائر في تلك الليلة ويعرف بمن كان ورائها وفي صبيحة أول نوفمبر وزع البيان على الجزائريين وأذيع على العالم من إذاعة القاهرة⁽²⁾.

كما استجابت الأسر الجزائرية لجميع النداءات والبيانات التي أصدرتها "جبهة التحرير الوطني" منذ أول نوفمبر (1954) تظهر من خلال قيامهم بالاضربات والمظاهرات للتعبير عن رأيهم لتقديم الدليل على أنهم يقفون صفا واحدا مع جبهة التحرير وجيشه مهما كلفه ذلك من تضحيات، فبرهنت لفرنسا وللعالم على نضج

(1) من مقررات اللجنة المركزية من المؤتمر الرابع إلى الخامس. مرجع سبق ذكره، ص220.

(2) حاج مسعود مسعود وآخرون، التاريخ. الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، 1997، ص84.

أفرادها السياسي وإصراره على رفض الاستعمار وتمسكهم بالحرية"⁽¹⁾، فقد شملت المظاهرات معظم الأفراد سواء رجال ونساء وأطفال...بحيث أنها انتظمت في المدن الجزائرية وفي المهجر حيث أضاف المتظاهرون شعارات جديدة في هتافاتهم مثل: "الشعب الجزائري وحدة لا تتجزأ".

ويمكن ذكر المظاهرات التي قامت بها الأسرة الجزائرية بمختلف أفرادها مظاهرات (11 ديسمبر 1960) والتي جرحت فيها العديد من الأسر وامتدت إلى عدة مدن وفي (05 جويلية 1961) قرر فصل الجنوب على الشمال فرفضت الأسر ذلك فاستجابت لنداء تنظيم الإضراب الذي واجهته القوات الفرنسية بكل عنف وكان أروع المشاهد في هذه المظاهرة طفلة شاركت في التظاهرة مصابة برصاص العدو وتنزف دما وتكتب به شعار "الصحراء الجزائرية"⁽²⁾ كما شاركت الأسر في (17 أكتوبر) في مظاهرات عارمة تطلب فيها بمنع التمييز العنصري، وآخر تظاهرة كانت أثناء الوجود الاستعماري (1962.02.27) التي جندت فيها الأسر جميع أبنائها للخروج في مظاهرات عارمة حاملة لشعار جبهة التحرير الوطني⁽³⁾، وهذا ما يعكس لنا مدى التماسك والتلاحم الاجتماعي

(1) نفس المرجع، ص185.

(2) نفس المرجع، ص186.

(3) وثيقة من المتحف الوطني للمجاهد. الجزائر.

أثناء الثورة التحريرية من خلال الأسر الجزائرية وهذه الظروف خلقت أفراد بسلوكات بناءة لمجتمعها بعيدة عن الإجرامية وهذا ما يتضح لنا مما سبق رغم المحاولات العديدة والتأثيرات المختلفة، والأوضاع السيئة ظلت العائلة الجزائرية محافظة و متمسكة بالتقاليد لدرجة بالغة حفاظا على طابعها المتميز وذاتيتها الخاصة رغم ما اعتري هذه التقاليد من أحوال ليست من الإسلام في شيء ولقد استعمل الاستعمار هذه العوامل وشجعها لتحذير الشعب، وبث الخلافات والتناقضات وخلق الفتنة لتمييز الوحدة الوطنية، وهذا ما يعكس لنا بوضوح الواقع الاجتماعي الجزائري الحالي وكأن التاريخ يعيد نفسه ولكن ببذلة مغايرة لتلك التي خلفها المستعمر، ولقد تولدت عن تلك الأوضاع عدة ظواهر أبرزها:

- 1 - ظاهرة الأسر الكبيرة العدد.
- 2 - استمرار الروابط العشائرية في تنظيم العلاقات والمعاملات داخل العائلة فبقي التضامن العائلي قويا، وبروز ذلك في مشاركة أفرادها في مختلف المناسبات من أفراح وأقراح مهما تباعدت بينها المسافات.

كما أنه بقيت في هذه الفترة ظاهرة تعدد الزوجات التي كان لها مبررات اجتماعية منها إنجاب الأولاد والذكور خاصة لأسباب اقتصادية ولكن بقي الطلاق ظاهرة كثيرا ما كانت تتم

على حساب المرأة إلا أن تماسك العائلة كان يتدخل لحل الخصومات وردع الظلم.

3 - أما أسلوب التربية الذي كان سائدا في الأسرة الجزائرية متصفا بالصرامة وكان الهدف منه أساسا هو تكوين شخصية الطفل وتنشئته حسب أعراف وقواعد أخلاقية ومبادئ إسلامية حتى يكتمل نموه ليقوم بدوره الاجتماعي المنوط إليه ومن أجل ترسيخ تقاليد العائلة والمجتمع حسب مفاهيم المروءة والكرامة والرجولة والاحترام، وتلقينه أصول اللغة والدين وكرهية المستعمر وعدم الخضوع له.

4 - أما فيما يخص المرأة باعتبارها عنصر فعال في الأسرة فقد استطاعت بأخلاق وتقاليد ذلك العهد أن ترسم معالم المرأة النموذج وأن تزودها بجملة من القيم والقواعد السلوكية التي لا ينبغي الخروج عنها مدى الحياة إلا أن المرأة في بعض الأحوال ظلت مجبرة على البقاء في البيت وعلى عدم المشاركة في شؤون البلاد ماعدا فئة الممرضات والمسجلات كما كانت مهضومة الحقوق عديمة الرأي بالنسبة للرجل، وقد انتشرت الأمية ومع ذلك فقد ظل الدين الإسلامي الدرع الواقي رغم كل الظروف التي كانت تعيشها المرأة فإن دورها التربوي وتأثيرها على الأطفال وانفرادها دون الزوج بهم

جعلها ناقلة للقيم الإسلامية وغارسة لفضائل أخلاقية كعزة النفس⁽¹⁾.

إنّ ميزة الأسرة الجزائرية أنّها متجانسة تشكل كتلة واحدة تقريبا فكل عضو من أعضاء هذه الأسرة يكمل العضو الآخر، ووجود الأحزاب السياسية قبل عام (1954) قد أدخل على حياة المواطن الأصلي الخاصة فروقا طفيفة وخلق بعض التناقضات وهي أوضاع تحث كلها على العمل بغرض مقاومة المجتمع للمستعمر، وهكذا تحولت الأحزاب الوطنية والمقاومات مع الاستعمار لإحلال الوعي والحركة والنضج السياسي.

أما فيما يتعلق من موقف الأب من مشاركة ابنه في الكفاح فحدوث تحول في سلوكات الأب حيث لا يزيل جذريا أنماط السلوك التقليدي وبصعوبة يفرض الأب الصمت على رغبته في إرجاع سيادته المنهارة، والابن الجزائري هو الذي يدفع بالأسرة في الحركة الواسعة للتحرر الوطني غير أنّ الموقف يكون أحيانا أشد صعوبة ذلك أنّ الأب يجد نفسه عندما يكون مشهورا بتعاونه مع الإدارة المستعمرة مرغما على الاختيار وهو يمارس وظيفته وسواء كان قائدا من رجال الشرطة، "باشاغا" أو منتخبا عن المصانع

(1) مقررات اللجنة المركزية من المؤتمر الرابع إلى المؤتمر الخامس. مرجع سبق ذكره، ص577.

فيجد نفسه منبوذا أو محكوما عليه من قبل الجزائري الجديدة
المجسدة في ابنه وفي أغلب الأحيان يستقيل⁽¹⁾.

أما موقف الأب من انضمام ابنته هو القبول خصوصا إذا لزم
الأمر ذلك فقد تحدث أن تكون الفتاة الجزائرية الشابة مطلوبة من
السلطة أو من عدد كبير من أعضاء الشبكة المنتمية إليها فتصبح
ضرورة الاختفاء أو الهروب ضرورة عاجلة وهكذا تغادر أسرتها
وتلجأ إلى الالتحاق بأقرب فرقة من فرق المقاومة، وتخرج بذلك
المرأة عن سماتها التقليدية، والمجتمع الجزائري وهو في معركة
التحرير، وفي التضحيات التي قدمها في سبيل التحرر من النظام
الاستعماري يجد نفسه و"يعمل على إيجاد قيم لم تكن معروفة
مبنية على علاقات جديدة بين الجنسين"⁽²⁾، وبهذا تدعوا الفتاة
أبائها إلى نوع من التحول كما وضعنا سابقا، فالثورة التحريرية
أحدثت تحولات هامة في ذهنيات الأسر وسلوكهم وذلك لما اقتضته
من مشاركة الجميع نساء ورجال وأطفالا فدفعت بالمرأة إلى صميم
المعركة فبينت مكانتها ومسؤوليتها ووعيها وأخذت المرأة بنضالها
مكانة متقدمة بصفقتها مجاهدة أو فدائية أو ممرضة أو كاتمة
أسرار ونتيجة لهذه الآثار وخاصة ما صاحبها من تكافل بين أفراد

(1) فرانز فانون، سوسيولوجية الثورة. مرجع سبق ذكره، ص 98، 99.

(2) نفس المرجع، ص 100.

المجتمع، فإن الاختلافات القديمة من الشعور بالجهوية واعتزاز بالعشيرة وتمايز بالطبقة تلاشى الكثير منها وحلت محلها قيم أخرى قائمة على المشاركة في الحرب وتحولت العائلة تحولا نوعيا وجذريا وسادت قيم جديدة في العائلة الموسعة فرضت نفسها عوض العائلة الضيقة التي تعرضت بشكل أو بآخر إلى التحول النوعي وسبب هذا التحول تغيرا جذريا في العلاقات العائلية مع المحيط مما دفع بالأسر لتفتح بيوتها للمجاهدين ووضع كل إمكانياتها تحت تصرفهم وأصبح المجاهد عضوا في العائلة بقطع النظر عن جهته أو أصله.

وكان سجن الزوج أو استشهاد أو التحاقه بالجبل - بالمجاهدين - يفرض على عاتق المرأة مسؤولية القيام بالأعباء العائلية والاجتماعية والوطنية، وكم بقيت بمعزل الرجل تواجه التتكيل والتعذيب المسلط عليها من طرف العدو داخل البيت والمعتقلات والسجون.

وكم من النساء تركن البيت والتحقت بصفوف الثورة دون استشارة الأهل أو رغم عنهم.

أما فيما يخص الزواج بالأجنبي أو الخائن كان مرفوضا ثوريا وعار وجريمة اجتماعية.

وسادت ظاهرة التضامن بين أفراد المجتمع حيث كانت العائلات تتكافل ماديا وماليا بنساء وأطفال المعتقلين والشهداء

وكل المتضررين وحصانة أيتامهم⁽¹⁾ وهكذا فقد نشأت تحولات بنائية ووظيفية وتطورات حقيقية بفضل الكفاح ولقد أدت الحرب التي دامت سبع سنوات ونصف إلى خسائر مادية وبشرية خصوصا في المناطق الريفية فأصبحت الحركة الثورية تنمو في نفوس جميع الأسر مما اضطر الجيش الاستعماري قصد الوصول إلى أهدافه للقيام بمحاولة تحطيم كل دعائم الأسرة الجزائرية.

إذا كان الشعب يشكل مصدر القوة المعنوية والمادية في كل ثورة رائدة. فالأسرة الجزائرية قد مثلت مصدر القوة المادية والإلهام الروحي في الثورة التحريرية الكبرى مستعملين كافة السبل من أجل استرجاع شخصيتها ومقوماتها التي حاول المستعمر الفرنسي بكل الوسائل طمسها وتحطيمها ولكن بقيت الأسر الجزائرية متمسكة بمعاييرها الاجتماعية من جهة والثورة التحريرية من جهة أخرى لأن هذه الثورة رأت فيها الأسرة الجزائرية السبيل الوحيد لطرد المستعمر الفرنسي وبذلك رفعت التحدي ومن أبرز هذا التحدي هو إعادة صياغة بناءها الداخلي وتوزيع الوظائف والأدوار بشكل يتجاوب مع أوضاع الثورة.

ومن هذا المبحث يتضح لنا محاولات فرنسا الاستعمارية في تحطيم الأسرة الجزائرية من الناحية الاجتماعية والثقافية وسعت

(1) من مقررات اللجنة المركزية. مرجع سبق ذكره، ص 583.

الأسرة الجزائرية للحفاظ على تماسكها بفضل تمسكهم بالقواعد والمعايير الاجتماعية ولما رأت الأسرة الجزائرية بأن الثورة التحريرية ولدت من صلب المجتمع لإعادة الاعتبار للأسرة الجزائرية بمقوماتها والمجتمع ككل أدى إلى تمسك وتلاحم هذه الأسر بالثورة التحريرية.

قائمة المراجع:

- (1) مانع (علي)، جنوح الأحداث والتغير الاجتماعي في الجزائر المعاصرة: دراسة في علم الإجرام المقارن. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1996.
- (2) السويدي (محمد)، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري: تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغير في المجتمع الجزائري. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990.
- (3) بيرنت (يوهان كارل)، الأمير عبد القادر. (ترجمة أبو العيد دودو)، دار هومة، الجزائر، ط2، 1997.
- (4) كسال (مسعودة)، مشكلة الطلاق في المجتمع الجزائري. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990.
- (5) مشري (جموعي)، تاريخ المغرب العربي الحديث. طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، 1988.
- (6) طلاس (مصطفى)، الثورة الجزائرية. طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1974.
- (7) العسلي (بسام)، عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية. دار النفائس، بيروت، ط2، 1982.
- (8) الإبراهيمي (محمد البشير)، عيون البصائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون سنة.

- (9) بقطاش (خديجة)، الحركة التبشيرية في الجزائر 1830-1871. مطبعة دحلب، الجزائر، 1992.
- (10) سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي: (من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري) (16 - 20م). المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج1، ط2، 1985.
- (11) المدني (أحمد توفيق)، كتاب الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- (12) بن إسماعيلي (محمد)، مشايخ خالدون (ولاية عين الدفلى نموذجاً). مطبعة الكاهنة، الجزائر، ط1، 1998.
- (13) عمامرة (رابح تركي)، في التربية الإسلامية: رسالة المسجد في المجتمع الإسلامي. حوليات جامعة الجزائر.
- (14) الخطيب (أحمد)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها الإصلاحي. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- (15) الوافي (عبد الرحمن)، في سيكولوجية الفرد والمجتمع. دار هومة، الجزائر، بدون سنة.
- (16) بوتفوشنت (مصطفى)، العائلة الجزائرية: التطور والخصائص الحديثة. (ترجمة أحمد دمري)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
- (17) حوحو (أحمد رضا)، مع الحمار الحكيم. المطبعة الجزائرية، قسنطينة، 1953.

- (18) من مقررات اللجنة المركزية من المؤتمر الرابع إلى الخامس.
- الجزء 2، نشر وتوزيع قطاع الإعلام والتنشيط، الجزائر، 1985.
- (19) زروال (محمد)، الحياة الروحية في الثورة الجزائرية. منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ط1، 1994.
- (20) العياشي (علي)، ندوة في مجلة أول نوفمبر. العدد 81، جانفي 1987، الجزائر، ص19.
- (*) الذين يختصون بجمع المساعدات من الأسر "الأكل والدواء واللباس" ويقدموه للشوار.
- (21) رباحي (الصادق)، التاريخ لطلاب البكالوريا. نشر مشترك لدار تلاتنقيت ودار لمن، الجزائر، جانفي 1995.
- (22) ماجن (عبد القادر)، مجلة أول نوفمبر. اللسان المركزي للمنظمة الوطنية، العدد 81، الجزائر، جانفي 1987.
- (23) مسعود (حاج مسعود) وآخرون، التاريخ. الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، 1997.
- (24) وثيقة من المتحف الوطني للمجاهد. الجزائر.
- (25) فانون (فرانز)، سوسيولوجية الثورة. (ترجمة دوقان قرقوط)، دار الطليعة للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ط1، 1970.